آداب الطريق الصوفى

للأستاذ عبد الحفيظ فرغلى القرنى

(٩)

ومفهوم هذا القول أن انقياد الإنسان لله ، وطواعيته له ، وإخلاصه لدينه ، يكون له أثر فى صلاح زوجته ، وحفظ أسرته ، وتوفيقة فى حياته وسعادته ، والعكس بالعكس . والله جل وعلا يقول « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة . ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » وأى حياة أطيب من السعادة الزوجية ، ومن راحة البال مع كثرة العيال ؟ وهذه قاعدة تكاد تكون عامة ، وضع أساسها القرآن الكريم بقوله « الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات ، أولئك مبرءون مما يقولون ، لهم مغفرة وأجر عظيم » .

ولا يعترض عليها ، بزوجتى نوح ولوط الوارد قصتهما فى القرآن الكريم « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين ، وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون . إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » فإن هذا من قبيل اختبار إيمان المؤمن وقوة عزيمته ، ودليل على أن الهداية بيد الله وحده « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد فى السماء » ، « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

فمن أراد الله ضلاله أضله ولو كان زوجة نبى ، ومن يرد أن يهديه هداه ولو كان زوجة شقى .

وقد فهم الصوفية هذا الفهم العالى ، فاستقاموا ، فكان لهذه الاستقامة صدى كبير فى توفيقهم فى حياتهم الاجتماعية ، وأثر فى إنجاب ذرية طيبة تحقق معنى قوله تعالى « والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم ، وما ألتناهم من عملهم من شىء » ونسير على هدى من الله وعناية منه ، ويصحبها التوفيق على مر الأجيال وتعاقب الأزمان «وكان أبوهما صالحا ، فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك » ولذلك كان أفضل مايورثه الرجل لأبنائه من بعده هو العمل الصالح ، فهو الذى يبقى دون غيره من مال أو نشب . أليس الله هو القائل : » وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولا سديداً » ؟ .

وقد وضع الغزالى — رضى الله عنه — فى كتاب الأحياء كثيراً من القواعد الصحيحة للتربية الصوفية ، وكلها تنظر إلى أن القدوة الصالحة هى الأساس السليم فى التربية .

والتربية الحديثة لا تخرج على هذا المنهج ، بل تنادى به وتدعو إليه . وتشترط فى المربى أن يكون فى سلوكه الشخصى مثالا يحتذى وتوجيهات المناهج المختلفة ، وخاصة مناهج الأخلاق والتهذيب والتربية الدينية ، تطلب فى المعلم النموذج الكامل ، الذى إذا حاكاه تلميذه حقق الهدف المنشود .

ومن الطبيعى ذلك ؛ فليس من المعقول أن يطلب معلم الأخلاق من تلاميذه الحرص على مكارم الأخلاق وهو بعيد عنها ، بل العكس هو الصحيح . والأخلاق لا تعلم ، ولكنها تقتبس وتغرس ، ومهما حاول المربى أن يلقن تلاميذه اجتناب الكذب واتباع الصدق فإنها تكون محاولة يائسة متى شاهدوه يكذب ويراوغ .

وكذلك الأب فى بيته لا تنتظر من أسرته الحرص على الفضائل طالما كان هو بعيدا عنها . وكيف ينجح مثلا فى تجنيبهم عادة التدخين إذا كان هو فى نفسه مدمن تدخين؟ . والطفل لا بد له أن يقلد — والبطل الذى يقلده فى نظره هو أبوه . فليجتهد الوالد أن يكون فى عينى طفله بطلا بمعنى الكلمة ، حتى لا يفجعه مستقبلا فى مثله الأعلى ، ويحطم الصورة التى رسمها له فى خياله ، وأحاطها بسياج من الحب والتقدير والولاء .

إن كثيراً من المضايقات التى تصادفها المدرسة فى حمل التلاميذ على سلوك معين أو اجتنابه ، يرجع إلى المنزل ، فهو المجتمع الأول الذى مارس فيه حريته ، واقتبس منه شخصيته ، وكون فيه طبيعته . وتتحول نفوس التلاميذ إلى ميادين صراع تتقاسم شخصيته ، وتوزع طاقته .

وسواء نجحت المدرسة أو فشلت فقد تعرض الطفل لحرب ضروس ، قاسى من ورائها الكثير من المتاعب والأهوال . والسبب فى كل ذلك راجع إلى التربية الأولى التى طبعت الطفل بطابعها وتركت فيه جذورا قد يبقى بعضها معلقاً بنفسه ، رغم جهاد المدرسة المرير فى اقتلاعها واستئصالها .

وقد نادت التربية الحديثة بوجوب التعاون الوثيق بين البيت والمدرسة ؛ حتى يكون المعلم على هدى وبصيرة بظروف التلميذ وبيئته ، ومدى ما أثر ويؤثر فيه من عوامل خارجية ، قد تعوق تدرجه العلمى والسلوكى والتهذيبى .

والبيت يكون خير معين للمدرسة إذا ما فهم هذه الرسالة حق الفهم ، وأدرك أن نشأة الطفل مسئولية كبرى ملقاة على عاتق الآباء ، ورسالة سامية حملتها لهم السماء ، وأوجبت للأبناء عليهم حقوقا . هم مطالبون بأدائها ، قبل أن يطالبوا أبناءهم بالبر بهم والطاعة لهم .

وقد تكون عناية التربية بهذا التعاون خطوة عملية ، ومحاولة فى طريق تصحيح الخطأ ، الذى نشأ عن الانحراف عن قواعد الدين وعدم التمسك به فى بيئاتنا ، وعلاج للنقص الذى نتج عن عدم التمسك بالتربية الصوفية التى كان فى الإمكان أن تريح المدرسة فى وقتنا الحاضر من كثير من الأعباء ، وتترك لها فرصة واسعة تتجه فيها إلى إتمام البرامج العلمية والعملية ، والسير بها على أكمل وجه وأرضاه .

إن التربية الصوفية تربية عملية هامة ، فهى تخلق من الطفل رجلا قادراً على تحمل أعباء الحياة ، وصالحا لأن يعقد صلات طيبة مع غيره من الناس ؛ لأنها تحاول أن تبنى شخصية الفرد على أساس أن ينظر إلى الحياة نظرة واقعية بعينى رجل .

وحسبنا منه أنه يضع ميزان المراقبة نصب عينيه . يحاسب نفسه بنفسه ؛ ويجعل من ضميره سلطاناً يحترم رقابته ، ويقدس أحكامه .